

تفسير ابن كثير

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ

أي : ويقول هؤلاء الكفرة [الملحدون] المكذبون المعاندون : " لولا أنزل على محمد آية من ربه " ، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة ، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا ، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا ، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله ، كما قال تعالى : (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) [الفرقان : 10 ، 11] وقال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) [الإسراء : 59] ، يقول تعالى : إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا ، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، بين أن يعطى ما سألوا ، فإن أجابوا وإلا عوجلوا ، وبين أن يتركهم وينظرهم ، اختار إنظارهم ، كما حلم عنهم غير مرة ، صلوات الله عليه ، ولهذا قال تعالى إرشادا

لنبيه إلى الجواب عما سألوا : (فقل إنما الغيب الله) أي : الأمر كله الله ، وهو يعلم
العواقب في الأمور ، (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أي : إن كنتم لا تؤمنون
حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في وفيكم . هذا مع أنهم قد شاهدوا من
معجزاته ، عليه السلام أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إداره ، فانشق
بأثنتين فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما
سألوا وما لم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وثبتا لأجابه ، ولكن
علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا ، فتركهم فيما رابهم ، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد ،
كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى
يروا العذاب الأليم) [يونس : 96 ، 97] ، وقال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة
وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن
أكثرهم يجهلون) [الأنعام : 111] ، ولما فيهم من المكابرة ، كما قال تعالى : (ولو
فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم
مسحورون) [الحجر : 14 ، 15] ، وقال تعالى : (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا

يقولوا سحاب مركوم) [الطور : 44] ، وقال تعالى : (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس
فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) [الأنعام : 7] ، فمثل هؤلاء
أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه ؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء ؛ لأنه دائر على تعنتهم
وعنادهم ، لكثرة فجورهم وفسادهم ؛ ولهذا قال : (فانتظروا إني معكم من المنتظرين)